الطبيعة فى شعر ابن خفاجة

١

فى سنة ٤٥٠ للهجرة ولد الشاعر ابو اسحاق ابراهيم بن خفاجة فى الاندلس فى جزيرة شقر ونشأ فيها كما ينشأ غيره حسب نظام الحياة فى تلك العصور على اخذ اللغة العربية عن الرواة والنحويين ، وعلى تلقن احكام الفقه عن الفقهاء والمعلمين ؛ حتى كانت له فى الفقه مكانة لم ينكرها معاصروه فلقبوه بالفقيه .

ربما خطر ببالك اننا سنأخذ بعد هذه المقدمة فى وصف حياة الشاعر بعد زمن التعلم ، وربما لاح لك ان حياته بعد ان صارت له فى الفقه تلك المكانة ستكون مملوءة بالاحاديث العلمية والمجادلات الدينية وانه سوف لايخرج من مجلس علماء الا ويدخل فى مجلس فقهاء ، ربما لاح لك ان حياته ستكون بعد ان لقب بالفقيه حياة مدرس جاد او قاض عادل ، او انه سيسلك سبيل المناصب فى الدولة من أمارة أو وزارة ، ربما لاح لك ذلك على وجه الظن ان لم يكن على وجه التحقيق ، لأنه نتيجة محتومة لحياة التلمذة التى قضاها بين الجد والدرس ، وبين مسائل الفقه وأحكام الدين ، وبين كتب الكوفيين وكتب البصريين ، فنحن نجيبك عما خطر ببالك بالايجاب ، وعما لاح لك بالسلب ، ونقول فيه انه كان فى طبيعة ابى نواس وفى حاله فقيهان غلب عليهما الشعر ، وعالمان غلب عليهما الظرف والدعابة

عاش ابن خفاجة فى الاندلس وهى يومئذ جنة الله فى ارضه ، اكسبها موقعها اعتدال المناخ ورقة الهواء ، وسقاها الغمام من دموعه ، فى أكثر ايام السنة ، وتفجرت ارضها بالينابيع والجداول فى كثير من وديانها ، ونبتت الاعشاب والازهار حول هذه المياه ، وقامت فيها الاشجار فلا ترى اذا سرت فيها الا مياها قوية دافقة ، وظلالا وارفة واسعة ، فى ايام استتب الامن فيها على يد العرب الفاتحين ، وعملت يدهم فيها فأقاموا الجسور وشيدوا القصور وبنوا المدن ؛ ثم خططوا الرياض والبساتين وغرسوا بها الاشجار والأزهار والرياحين ، واسالوا اليها مياه الانهار والجداول ، واقاموا فيها البرك الجميلة ، والبحيرات الواسعة ، والمجارى الكثيرة . فدنت قطوفها وكثرت خيراتها ، وتحولت من حقول خربة واسعة واحراج كثيفة الى بلاد عامرة . ورياض زاهرة ، وقصور مشيدة ، وتحولت من ملك مضطرب قبل الفتح الى ملك ثابت وطيد بعده ، وتحولت حياتها من حياة ريفية مقلة ، الى حياة مترفة ساحرة

وكان من الطبيعى ان يكون لسكان تلك الأرض عواطف رقيقة ونفوس جميلة لما للطبيعة الماثلة فى كل وقت وفى كل مكان امام اعينهم من أثر ، ولما فى حياتهم من ترف ونعيم

وابن خفاجة فى حياته يمثل لنا الرجل الاندلسى الذى عاش فى تلك العصور احسن تمثيل ، وفوق ذلك كان لايميل الى مناصب الدولة ولم يكن له عمل من الاعمال العامة ، وانما عاش كما وصفه الاستاذ الزيات فى كتابه تاريخ الادب العربى (عيشة الفنانين خليع العذار طليق الاسار) وكان له من طبيعته خير مساعد على الهرب بنفسه من بين كتب الفقه والنحو ، ومن بين جدران قاعات الدروس والمجالس العلمية ، فاقتصر فى حياته على مشاهدة طبيعة بلاده الساحرة ومناظرها الزاهية ، فى اجتماعاته على مجالس الادباء والشعراء فى بياض يومه ، وحضور ليالى اللهو والخمر تحت اشجار الأراك بين الابارين والاقداح وبين الورد والريحان ، حتى يمسح الصبح كحل الظلام (فامتلات عينه ونفسه من جمالها ، وراح يبرز هذا الجمال المعنوى فى حلل شعرية)

الممنا فى المقدمة السابقة الماما قصيرة بوصف طبيعة الأندلس ؛ وطبيعة ابن خفاجة ، كالاولى كانت جميلة المناظر ، زاهية الالوان ، والثانية كانت كوجه البحيرة صفاء وركودا ينعكس فيها كل مشهد من مشاهد الكون جميلا جذابا ، وقلنا ان طبيعة ابن خفاجة احبت طبيعة بلاده حبا بلغ به حد الغرام حتى هجر حياة الدرس وحياة العمل ومجالس العلم واقتصر على حياة كحياة الفنانين الذين ينقطعون الى مشاهدة مناظر الحياة التى تتعلق بفنهم ، ولعلك ترانا محتاجين الى مثل هذه المقدمة ، فان الموضوع الذى كلفنا انفسنا بحثه يحتاج الى مثل هذه المقدمة ؛ اذ كل ماتقصد من هذا الموضوع أن نقدم بين يديك الصور التى اجتلاها ابن خفاجة عن الطبيعة .

ترى الطبيعة فى شعر ابن خفاجة ماثلة واضحة ، تقرأ له القطعة فترى وتسمع وتشم . ترى المناظر واضحة جلية ، وترى خضرة الاشجار ، وحمرة الأثمار ، وبياض الحباب ، وصفرة الشمس ، وترى ذهب الاصيل ولجين الماء وزرقة السماء ، ثم تسمع نشيد المغنى ووقع الرباب

وغناء الحمام ،ورنين المكاء وخرير الماء ، ونسم عرف الروضة الغناء، وأريج الأزهار البيضاء ، ورائحة الورد الحمراء ، ثم تقرأ له من التشبيه الساحر والطباق الدقيق ، والكناية اللطيفة مالا يخرج عن الربا الخضراء والوهاد الشجراء والادواح اللفاء ، ومالا يخرج عن العنبر والعرار والسوسن والاقحوان . ان بلاداً يصفها الشاعر فيما يصف فيقول :

ياأهل اندلس لله دركموا ماء وظل وانهار وأشجار
ماجنة الخلد الافي دياركمو ولو تخيرت هذا كنت اختار
لا تحسبوا بعد ذا ان تدخلوا سقرا فليس تدخل بعد الجنة النار

وان حياة يحياها الشاعر كما وصفها فيقول:

انمـــا العيش مدام احمر قام يسقيه غـــلام احور
وعلى الاقداح والادواح من حبب نور وتبر اصـــفر
فكأن الدوح كأس أزبدت وكأن الكأس دوح مزهر

ان تلك الارض وهذه الحياة لدليل واضح على صفاء نفسه ودقة حسه ،وعلى تأثيره بمشاهد ارضه الى حديثه جنون الفنانين فقد كان يذكر الطبيعة فى مواقفه التى وقفها راثيا باكيا وفى مواقفه التى وقفها زاهدا متململا ،وفى مواقفه التى وقفها معاتباً ممضا ،وفى مواقفه التى وقفها مادحا يمدح الاخوان والقضاة ،وفى مواقفه مداعبا اخوان الود ورفاق اللهو والسمر

لقد كان للطبيعة فى لطف نفس الشاعر ورقة حسه أثر ، وكان للطبيعة فى شعره ظل ، وكان للطبيعة فى كل أغراضه التى قال بها الشعر ذكر ،فهو (شاعر الطبيعة ومصورها) كما قال الاستاذ الزيات

٢

تقسى الشاعر : لابن خفاجة فى شعره صورة صادقة من طبيعة نفسه فى قوله :

انمـــا العيش مدام احمر قام يسقيه غلام احور

الى آخر الابيات صورة لتلك النفس التى لا ترتاح الا الى خمرة حمراء من يد جميل احور فى ظل الدوح المزهر

فهو لا يرى فى الحياة شيئا غير هذا ، او كأنه لا يريد ان يرى فى الحياة شيئا غير ماذكر ، اوقل انه يضع بذلك نموذجا للحياة اللذيذة كيف تكون ، ألا ترى انه كيف عكف على رشف الكؤوس الحمراء ومراقصة الاغصان الخضراء:

عاظر اخـــلاءك المداما واستق للأيكة الغماما
وراقص الغصن وهو رطب يقطر او طارح الحـــماما

فهو لا يرى للحياة ان تملك الاذهان بالتفكير فيها ، ولا يرى لها ان تملك المرء بالعمل لها . وليس للحياة ان تجعل من الانسان عبداً ذليلا للجد والعمل . ولكنه يرى ان تكون الحياة ألهية جميلة يتلهى بها الانسان عن مشاقها . ويتسلى بها عن احزانها ، ويرتاح لها ، ولا يرى فى الحياة الذ من رشف الكأس الوردية ، ولا أروح للنفس من مراقصة الاغصان الرطبة . ولا الذ فى السمع من مطارحة الحمام ولا اجمل فى العين من الوان النور فى الصباح والماء فى الروضة الغناء.

فابن خفاجة لا تطيب له الحياة الا عند شواطىء الجداول والينابيع وتحت ظلال الادواح ، وبين الاباريق والاقداح . انظر اليه كيف يقول :

اما لديك حـــــلاوه اما عليـــك طـــلاوه
طايب وداعب ولاعب واترك ســـجايا البداوه

فكأن حياة الجد وطبيعة الانقباض والوحشة لاتوافق مذهبه اوقل لا تتشابه ولا تتجانس مع طبيعته التى تعشق السرور . ونفسه التى تحب اللهو والعبث .

لم يبق بعد هذا من شك فى ان طبيعة الرجل كانت طبيعة سرور وطرب ، بل كانت فوق ذلك طبيعة متفائل يهزأ بمصاعب الحياة وليس من شك فى ان نفسه كانت تميل الى الهزل وتميل الى العبث ،بل ليس من شك فى ان حياته كانت حياة مستهتر يهرب من وجه الحياة العابس الى وجهها الضاحك ، فلم يتول عملا من الاعمال العامة . ولم يتصد لمدح الامراء والوزراء والملوك على كثرة تهافت العلماء عليهم ، وعلى حاجة الملوك الى امثاله .

هنالك ملاحظة اخرى : هى ان ابن خفاجة كان على علمه وفقهه لايشتغل بالعلم ولا بالفقه ، ولعله كان يعتقد ان للعلم فضيلة فى ذاته وان على الانسان ان يتعلم العلم لاليجعله آلة تدر عليه المال ، بل كان يعتقد ان العلم جمال لاهله وزينة لهم . ومثل هذا الاعتقاد نجده فى قوله :

درسوا العلوم ليملكوا بجدالهم فيها صدور مراتب ومجالس
وتزهدوا حتى اصابوا فرصة فى اخذ مال مساجد وكنائس

فهو ينعى على اولئك الذين يجعلون العلم وسيلة لتصدر المجالس ، ولنهب المساجد والكنائس ، ويعيب عليهم ذلك . ولعل هذا هو السبب الذى دعا ابن خفاجة الى ان يعرض عن مجالسة علماء عصره وان يصدف عن مجالس العلم ومسائل الفقه ، وان يقتصر فى مجالسه على مجالس الادباء والشعراء ، وان يقتصر فى احاديثه على ذكر المتنزهات ، وان يقتصر فى شعره على وصف الطبيعة :

هذه هي الصورة الواضحة التي نراها للرجل في شعره . نفس تميل الى السرور والبهجة وطبيعة تهرب من الجد الى الهزل ، ومن الانقباض إلى الانشراح ، ومن اللدة الآجلة الى اللدة العاجلة ، ومن التحجب والحياء والتكلف الى اللهو والعبث والمجون . فليس بغريب ان تميل هذه النفس وتلك الطبيعة الى مجالس السرور والطرب والى معاطاة المدام ، وليس بغريب بعد هذا أن يصف ابن خفاجة في شعره مجالس انسه ، وأن يصورلنا بمقطوعات رائعة الأنهر الفياضة والضفاف الخضراء والرياض الفيح .

وصف الطبيعة : — وفي وصفه مناظر الطبيعة وفي تشبيه إياها بمناظر وأشياء تشابهها لا يخرج في كل هذا عن الطبيعة في شيء . فيشبه النهر المتعطف والازهار النابتة حوله بمجرة السماء .

متعطف مثل السوار كأنه والزهر يكنفه مجر سماء

ويشبهه أيضاً وقد حفت به الغصون باهداب العين الزرقاء .

وغدت تحف به الغصون كأنها هدب يحف بمقلة زرقاء

ويصف موقد قد اشتعلت فيه النار فيقول .

منقسم بين رماد أزرق وبين جمر خلفه يلتهب
كأنما خرت سماء فوقه وانكدرت ليلا عليه شهب

فهو في وصفه الطبيعة لايخرج عن الأوصاف والتشبيهات التي تحتويها الطبيعة : فالنهر المتعطف والازهار النابتة حوله ، وزرقة النهر واغصان الاشجار القائمة على شاطئيه ، والموقد المشتعل ، والرماد الازرق والجر الاحمر ، كلها مناظر طبيعية ؛ كذلك مجرة السماء والمقلة الزرقاء والسماء المتساقطة ، والشهب المنكدرة كلها مناظر طبيعية ، ومن هذا يمكنك ان تلاحظ الى أي حد بلغ غرام ابن خفاجة بالطبيعة وحبها . وانظر اليه كيف يصف ما فعل بهم الطرب وكيف يشبه الهلال بالطوق المذهب :

واهتز عطف الغصن من طرب بنا وافتر عن ثغر الهلال المغرب
فكأنه والحسن مقترن به طوق على برد الغمامة مذهب

فهو يشبه اهتزازهم من شدة الطرب وقت المساء الساحر بالغصن يهتز وينعطف ، ثم شبه الهلال الذي ابتسم عند المغرب بطوق ذهبي على برد الغمامة . وقال يصف الصباح الرائع .

والصبح قد صدع الظلام كأنه وجه وضيء شف عنه قناع

فقد شبه نور الصبح حين ينتشر في محو ظلمة الليل بوجه وضاء شف عنه قناع رقيق . ويصف الصباح في غير موضع فيقول :

وقد مسح الصبح كحل الظلام وأطلع فود الدجى اشيبا

فكما ان الصبح المضيء والدجى المظلم من مناظر الطبيعة فكذلك كحل الظلام وفود الدجى الاشيب صورتان عن الليل المظلم والصباح المنير ، ويقول في تشبيه الظلام بالكحل والقطر بالعبرات

يجول للغيم كحل فيه وللقطر عبره

فلم يخرج في تشبيه الغمامة الدكناء والامطار الحاطلة عن كحل الكاحل وعن العين المستعبرة . ويشبه خيوط الشمس الذهبية في الماء ، ولون الماء الصافي فيقول :

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء

والذهب الاصفر واللجين الفضي كلها الوان طبيعية : فكأن ابن خفاجة يحتقر الصناعة ويحتقر الوانها ، فلا يشبه مناظر بلاده التي يراها الا بمناظر والوان طبيعية ، ولا يصور الطبيعة الا بالوان وأدوات طبيعية ، أو قل انه رأى ان الصناعة والحياة الاجتماعية اقل مناظر واقل الوانا من الطبيعة ، فمال عنها اليها بمتع الطرف ويقول الشعر ويصف الشيب والشباب فيقول :

فاحسن من حمام الشيب عندي غراب شيبة ألف الغيا

فهو يشبه الشيب المخضب بالحناء بالحمام ، ويشبه شعر رأسه الاسود في زمن الشباب بالغراب ، ثم يقول : ان نعيب الغراب المشؤوم احسن عندي من هديل الحمام المحبوب

ونختم كلامنا الآن بهذه المقطوعة وهي تصف عشية من عشيات الانس ، ولاحظ اذا شئت فيها انه لايخرج في تشبيه مناظر الطبيعة عن الطبيعة

وعشي انس اضجعتني نشوة فيه تمهد مضجعي وتدمث
خلعت على به الأراكة ظلها والغصن يصغي والحمام يحدث
والشمس تجنح للغروب مريضة والرعد يرقى والغمامة تنفث

(يتبع) ادلب : عبد الرحمن جبير

الام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الألماني

نقله الى العربية

احمد حسن الزيات

وهو قصة واقعية من روائع الأدب الالماني ، تصور طهارة الحب ، وكرم الايثار ، وشرف التضحية ، بأسلوب رائع قوي وتحليل بارع دقيق

يطلب من المكاتب الشهيرة

ومن لجنة التأليف والترجمة والنشر شارع الساحة رقم ٣٩

الثمن ١٥